الملك الظاهر بيبرس

لا ينتهي هذا العام أيها السادة حتى يكون المجمع العلمي قد انتهى من إصدار عشرين مجلداً من مجلته : تفجرت ينابيعها بالأبحاث المختلفة في اللغة وآدابها وما له اتصال بها .

وقد أخذ المجمع يفكر في تنظيم فهرست عام لهذه المجلدات العشرين . يدني لبد المراجع بعيدها ويسهل عليه الرجوع الى ما خبئ فيها .

وقد احببت ان أنظم لنفسي فهرستاً يشتمل على بعض ما في هذه المجلدات العشرين من الأبحاث الخاصة : فأحصيت المقالات التي بحثت في الأوضاع اللغوية فوجدتها تبلغ ٣٠ مقالة ونيفاً . ثم أحصيت ما فيها من تراجم الأعيان ومشاهير الرجال فكانت نحو ثمانين ترجمة منها (١٥) للمستشرقين وهناك ترجمة لبوذه معبود الصين . واخرى لطاغور شاعر الهند . وثالثة لأحمد باشا الجزار الوالي التركي المشهور بالظلم في تاريخنا الحديث .

هذا ما وجدته في العشرين مجلداً من تراجم الرجال . أما محاضرات المجمع التي أُلقيت في هذه الردحة فربما بلغ عددها في الخمس والعشرين سنة ٣٥ محاضرة . منها محاضرات خاصة بذكر مناقب رجال التاريخ حتى احمد باشا الجزار نفسه فان له محاضرة مستقلة وُصف فيها بسوء السيرة لكنها أحيت ذكره على كل حال .

لا أكاد أصل في إحصائي هذا الى ذكر (الجزّار) حتى أسمع صوتاً من ورائي وعلى بعد عشرين متراً من موقفي هذا .

في هذا الصوت عُجمة وارتضاخ لكنة وعليه مسحة من جلال الموت ووحشة القبور يقول : أقلقتم راحتي . في هدأة رقدتي . نحواً من خمس وعشرين سنة . وأنا اسمعكم من فوق منبركم هذا تخطبون وتحاضرون . وأحياناً الى الغث من القول تستطردون . ولم أسمعكم قط ذكرتم اسمي في كل ما نشرتموه في مجلتكم أو نوهتم بشيء من أعمالي في محاضراتكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيكون لبوذه الصيني وطاغور الهندي والجزار التركي نصيب من اهتمامكم في مجلتكم ومحاضراتكم ولا يكون لجاركم بيبرس البندقداري شيء من ذلك حتى كأن مآثري ذهبت هباء . أو أنني ربذة ملقاة في الفناء لو لم يكن لي من جليل الأعمال إلا أني أكملت ما بدأه نور الدين وصلاح الدين ومهدت الطريق لرابعنا (قلاوون) وبذلك تم جلاء عدوكم عن بلادكم — لكفاني فخراً وعجباً . ولسوغ لي أن أوسعكم لوماً وعتباً . أين أنتم من مراعاة جواري . وحسن مجازاتكم لي على حلول داري .

هذا ما تخيلت أني اسمعه — أيها السادة — من جارنا الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي رحمه الله . وقد خجلت يعلم الله منه . وأسرعت الى تدارك ما فرط منا معشر المجمعيين فخصصته بهذه المحاضرة التي لا حسن فيها سوى براءة ذمتنا وأداء الحق الذي علينا لجارنا .

حقاً أيها السادة إن في إغفالنا ذكر هذا الملك المنقذ بين من نوهنا باسمهم في مجمعنا شيئاً من نكران الجميل . وغمط الحق . أو هو ذنب لا يغفره الا موقفي هذا . وحسنُ إصغائكم إلى ما أسرده على مسامعكم من مآثر الرجل ووصف ما أوتي من جلد وشجاعة وحسن تدبير ولطف سياسة حتى أمكنه جمعُ كلمة البلاد وزعزعةُ أركان المتغلب عليها وجعله على أوفاز للجلاء عنها .

وقبل الشروع في المحاضرة نقول لجارنا الملك : سمعنا عتبك علينا وسنعمل على إعتابك ما وسعته طاقتنا غير أن امر نشأتك في بلادك حتى حالت بين أظهرنا مما غاب عنا خبره . واختلف الرواة فيه . فهل لك أن تُسمعنا الحديثَ عنه من فمك ثم نَصله بالمدوَّن المنقول الينا من خبرك وما كان من محاولتك الملك حتى نلت منه امنيتك . وقضيت نهمتك .

* * *

قال نعم : منبتي صحراء الدشت من قوم رُحَّل يسمَّون قبجاق أو قفجاق وتنسب الصحراء اليهم فيقال دشت قفجاق . وبلادي واقعة وراء جبال القفقاس وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تمتد بين البحرين : بحر الخزر من الشرق والبحر الأسود من الغرب (وهي اليوم تؤلف جزءاً كبيراً من روسية اوروبا) ومعظم سكانها مسلمون . ومن مدنها كاسان واوفا وسراي (ولعلها التي تسمى اليوم استرخان) ومن أنهارها نهر (اتل) (الذي يسمى اليوم نهر الثولكا) ومن شعوبها القرغيز والبرغال أو البلغار (وهم البلغار الأقدمون) وكنا من أصل تتري . وقد ولدت من أبوين قفجاقيين سنة ٦٢٥ هـ فسماني (يبرس) أي الفهد . واتفق ان أغار علينا اخواننا التتر من أحفاد جنكيز خان وذلك سنة ٦٣٩ هـ فالتجأنا الى اخواننا بلغار بلاد الروسية بعد الاستئذان من ملكهم (أنس خان) فسمح لنا بدخول بلاده ثم غدر بنا وسبى من يصلح للسبي منا . وكنت أنا من جملة السبي . وعمري يومئذ ١٤ سنة . ولا يشوقني من لذائذ صبوتي في بلادي سوى ركوب الخيل وخلق طرائد الوحش عليها وسوى أني كنت مولعاً بشراب القِمِز حتى وكان هذا الشراب سبب موتي في بلادكم (والقمز أيها السادة شراب يتخذ من حليب إناث الخيل [1])

قال يبرس : ولا تخطر بلادي في بالي حتى الخيل التتري من قومي راكعاً بين ساقي فرسه ممسكاً بأخلافها منهمكاً في احتلابها حتى اذا تجمع هذا الحليب لدى الأسرة باعوا بعضه وشربوا بعضه وعزلوا شيئاً منه لاتخاذ القمز . وكأني أنظر الى عمي وهو متدثر بفروته الثقيلة من جلد الغنم يتقي بها البرد . وعلى رأسه كِمَّةٌ كثيفة مبطَّنة بالفرو وقد أخذ بين يديه زُبدية كبيرة فوضعها على فمه

(١) لا يخفى أن فقهاء الاسلام كرهوا أكل لحوم الخيل وشرب ألبانها خشية اقتراضها وهي آلة الجهاد . أما فقهاء ما وراء النهر المنتشر مذهبهم بين أهل سيبيريا ومنهم القفجاق فقد كرهوا لحوم الخيل للمدة للجهاد أما تلك التي تعيش سائمة وترعى قطعاناً كما ترعى البقر والغنم فلا كراهة في أكل لحومها ولا شرب ألبانها . و يقول الخبيرون أن قبائل سيبيريا ما زالوا الى أيامنا هذه يربون من الخيل قطعاناً ينتفعون بلحومها وألبانها ونتاجها على نحو ما نفعل بمواشينا . كما أنهم يتخذون من ألبانها شراب القمز المعروف قديماً . (والقِمز) بكسر القاف والميم وتشديد الزاي كما ضبطه مؤرخو الاسلام . أما الانكليز فيلفظونه هكذا (قوميس Kaumiss) وللقوميس في سيبيريا اليوم معامل يحضر فيها بمقادير كبيرة ويصدر الى الخارج في زجاجات مُعقَّمة كما يفعل الأوربيون في تصدير أشربتهم ومعلباتهم (التونسروا) الى بلادنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجعل يكرع ويكرع من شراب القمز وأكون في ناحية انتظر فراغه لأشرب ما فضل عنه من ذلك الشراب اللذيذ ·

ثم قال (بيبرس) متمماً حديثه وساقنا النخاسون الذين اشترونا من بلاد (انس خان) الى سيواس ومنها الى حلب فدمشق · فاشتراني العمادُ الصائغ لكنه أخيراً زهد فيّ لبياض رآه في احدي عينيّ واحتاج المنصور ملك حماة الى مماليك فنقلني النخاس الى حماة ·

وكان الملك المنصور هذا يومئذ صبياً وكان اذا اراد شراء رقيق عرضه أولاً على الخاتون الكبرى والدته فأحضروني اليها ومعي رفيق لي فجعلت تنظر الينا من وراء ستار · فأمرتْ بشراء رفيقي وقالت تخاطب ابنها المنصور مشيرةً إليّ (هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فانّ في عينيه شراً لائحًا) قال وقد أثارت كلمتها في نفسي هواجسَ لاذعة ما زالت تنمو وتتطوّر وتسوقني الى طلاب الملك حتى نلته ·

قال واتفق أن كان في حماة يومئذ الأمير أبديكين البندقداري مسجوناً بأمر سيده الملك الصالح أيوب (حفيد من نحن في مدرسته أعني الملك العادل) فبلغه خبري فاشتراني ثم افرج سيده الملك الصالح عنه فخرجت مع ابديكين من حماة الى مصر وغضب الصالح عليه ثانية فصادره · وكنت أنا في جملة أموال المصادرة وأصبحت من يومئذ (الصالحي) إي المنسوب الى الملك الصالح بعد ان كنت (البندقداري) اي المنسوب الى الأمير ابديكين البندقداري وكان عمري يومئذ تسع عشرة سنة ·

أقول فيكون بيبرس قضى خمس سنوات وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن يد سيد الى يد سيد حتى استقر أخيراً في حوزة الملك الصالح أيوب · فكان نعم المستقر : إذ قد عرف له الملك نجابته وادرك ان الشرّ اللائح في عينيه الذي تشاءمت به الخاتون انما هو خير : إذ لا يستقر ملك في ذلك الزمن إلا به · ولا تعتدل قناةُ حكم إلا إذا قوّمت بثقافه : غدرُ ملك بلغار ببيبرس وبقومه · وتنقله أسيراً رقيقاً في البلاد · وقولُ الخاتون ان في عينيه شراً لائحًا ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودخوله في جملة الأموال المصادرة التي قد يكون بينها دوابُّ ومتاع — كل ذلك قد لا يوري نار الحماسة في نفس غير نفس بيبرس أما في نفس (الفهد) كما سماه ابوه تلك النفسُ المتمردة الوثابة فان كل ما ذكرناه قدح فيها زنداً وارياً وأثر فيها تأثير الانتباه واليقظة للوسط الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش فيه : فجعله يعتقد ان حياته لا تستقيم وعيشه لا يطيب . وبغيته لا تنال ما لم يتسلح بأسلحة ذلك العهد : القوة والبطش والدهاء والمكر والانتقام أحياناً .

عاش بين مماليك سيده الملك الصالح وكلهم أتراك شجعان فرآهم انما يتحدثون عن المُلك وأدواته . والعرش وشهواته . وأخبار الملوك من أبناء جنسهم والطرق التي سلكوها . والأساليب التي اتخذوها حتى بلغوا أهدافهم وكان من اسماها تسنُّم العروش .

كان في بيبرس نجابةٌ وشجاعة وكان فيه فطنة وذكاء . وصلابةُ عود واستعداد لاستعمال أساليب تلك العهود . من حيث يؤدي ذلك الى الملك .

وكان بين هؤلاء المماليك الكثيري العدد اثنا عشر ملكاً مسَّهم الرقّ فلم يكن يُعرف اسمُ آبائهم . ومنهم بيبرس جارنا وكان المؤرخون اذا نسبوا هؤلاء الملوك الأرقاء قالوا (فلان ابن عبد الله) إشارةً الى جهالة أصله وكان بيبرس من أبناء عبد الله هؤلاء وقد نَظَمَ بعض الشعراء اسماءهم بحسب ترتيب تملكهم في بيتين من توقيع المواليا فقال :

(ايبَك) (قُطُز) يعقبو (بيبرس) يا ذا الدين
بعدو (قلاوون) بعدو (كتبُغا) (لاچين)
(بيبرسْ) (برقوق) بعدو (شيخْ) ذو التبيين
(طَطَر) (بَرَسْباي) (جقمَقْ) صاحب التمكين

ولما جاء بيبرس الى بلادنا (او نقول بحسب التعبير الحديث الى الشرق الأدنى) كان السلطان فيها موزعاً بين أولاد صلاح الدين وأخيه العادل : أولاد العادل في مصر ومنهم الصالح أيوب سيد بيبرس واولاد صلاح الدين في الشام وكان معظمُ الساحل وبعضُ الداخل بيد الصليبيين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهناك خلافة ببغداد مهددة بالسقوط في يد التتار . فالبلاد كانت واقعة بين شرين أو عدوين ضاريين (التتار) و (الصليبيين) . ويليهم من جهة آسيا الصغرى التي هي مستطرق الصليبيين أرامنة وروم مسلمون وهم السلاجقة في كيليكيا . وروم مسيحيون وهم البيزانسيون في القسطنطينية . ومن سوء طالع البلاد بأقطارها الثلاثة مصر والشام والعراق أن كان ملوكها المسلمون متشاكسين متدابرين يتربص بعضهم لبعض الدوائر وسنوح الفرص للبطش ، والتزوان على العرش . ولم يقم بعد صلاح الدين واخيه العادل من يجمع كلمتهم . ويقف بهم في وجه عدوهم على شاكلة ما فعل صلاح الدين . وقد تنبه الى هذا كله (بيبرس) فكان نهم الدرس تلقاه عن سيده الملك الصالح حفيد الملك العادل . وقد وثق به سيده فجعله قائد فرقة مماليكه . وشهد معه وقعة دمياط الشهيرة التي أسر فيها ملك فرنسا (لويس التاسع) أو القديس لويس وهو المعروف عند العرب باسم الفرنسيس .

وصحب بيبرس بعد موت سيده الصالح ابنه الملك المعظم (توران شاه) وكان المعظم هذا شاباً أخرق سيء التدابير . فتآمر مماليك أبيه على قتله وكان أولُ من علاه بالسيف منهم جارنا وبطل محاضرتنا (الظاهر بيبرس) . وبعد المعظم قامت بأمر المُلك شجرة الدر زوجة الملك الصالح . فأنفَ المماليك سلطانها عليهم فولوا أحدهم وهو المعزّ ايبك (سنة ٦٤٨ هـ) وعمر بيبرس يومئذ ٢٣ سنة عندها تثاءب الفهد وتمطى وتهيأ للوثوب واستيقظت في نفسه شهوة الملك النائمة وطمع فيه بعد ان رأى انتقاله من أسياده بني أيوب الى رفاقه وخشداشيته المماليك .

في نفس بيبرس ميل للفتك كما قلنا . وفي عينيه آثار للشر كما قالت الخاتون غير ان وراء ذلك كله عملاً ينتظره وخدمةً يتناها وقد رأى أن هذه الخدمة لا يوفيها حقها إلا هو فمنذ تولى الملك رفيقه (المعز ايبك) ترأس هو حزبَ المعارضة المتطرّفة . ووضع مخططها أمام عينيه واخذ في دس الدسائس . ونصب المكايد . تارةً في مصر وطوراً في الشام . وكان يجهز عسكراً ويصمدُ به الى مصر فيُهزَم بيبرس ويُقتَل من معه من الأمراء ويرجع الى الشام فيجهز عسكراً ثانيًا . أو دسيسةً ثانية . ولماذا كل هذا ؟ أهو لطمعه في الملك ؟ وفي ما يختف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به من العظمة وأبهة السلطان يا ترى ؟ أو لطمعه في أن ينال شرف خدمة الاسلام وإنقاذ البلاد من براثن الضاريين التتار والصليبيين ؟ الله يعلم . ولكن من تأمل في أعماله بعد ان تولى الملك رأى في تضاعيفها وفي النهج الذي سلكه لإنقاذ البلاد ما يشعر بأنه كان مخلصاً . في ما كان يرتكبه من الشر على حد تعبير الخاتون الأيوبية . واثقاً بأن الله سيغفر له خطاياه على حد تعبير الآية الكريمة (إن الحسنات يذهبن السيئات) . وعلى حد ما رواه احمد بن طولون أمير مصر وهو قوله (حدثني فلان عن فلان عن وهب بن منبه انه قال (اوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل : مُرْ عامة أمتك ان لا تتأسى بالملوك في ارتكاب الكبائر فان للملوك كبائر من الأفعال الجميلة لا يصل اليها غيرهم تمحص بها آثامهم ويحسن بها صدرهم) اهـ (راجع ص ٣٣٤) من سيرة ابن طولون اقول ولا يسلم هذا الحديث من نقد وتجريح بل هو من قول ابن منبه وهو غير ثقه .

لم يكد الملك المعزّ ايبك يستقر على العرش بعد شجرة الدر حتى رفع بيبرس صوته قائلاً : نريد ملكاً من سلالة اسيادنا بني ايوب ولا نريد ان يملك علينا رجل من غيرهم . وأدّى الأمر أخيراً الى قتل (المعزّ) فخلفه على العرش ابنه (المنصور) فوقف جارنا بيبرس من الابن موقفه من الأب موقف معارضة ودس وتأليب ثم خلعوا (المنصور) بحجة صغره فتولى بعده المظفر قُطز وهو مملوك المعزّ ايبك المقتول وكان ذلك سنة ٦٥٧ هـ وعمر بيبرس ٣٢ سنة فعظم الخطب على بيبرس وجعل يتنزّى تنزّي الفهد في القفص وزاد حقده . واشتد كيده وأوشك ان يلتهب شوقاً الى الملك أو شوقاً الى الوقت الذي يمكنه فيه إنقاذ البلاد من الخطر المحدق بها . ولا سيما بعد أن بلغه خبر استيلاء (هولاكو) على بغداد وقتله الخليفة (المستعصم) .

وكان بيبرس في زمن (قُطز) مقيماً في دمشق لاجئاً الى ملكها (يوسف صلاح الدين) الثاني وهو من أحفاد صلاح الدين الكبير ثم رأى بيبرس ان مكثه في دمشق لا يجديه نفعاً . ولا يمكنه من (قُطز) وإسقاطه ما لم يكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مقيماً بجانبه يطالع الأمور عن كثب . فأرسل بيبرس الى قطز يلاينه ويُعاتبه في بعض الشيء ثم استحلفه أن لا يخونه اذا جاءه فحلف له قُطز . فجاء بيبرس الى مصر وانضم الى مماليكيها الذين يعملون في خدْمة (قطز) ثم شهد معه وقعة (عين جالوت) على مقربة من نابلس وهي الوقعة التي دحر قطز فيها التتار . واستأصل شأفتهم من بلاد الشام . وكان انتصاره هذا عليهم كأنه انتصار على بيبرس وخذْلانٌ له في ما يؤمل ويريد . لكنه مع هذا تشدّد ونشط الى تدبير مؤامرة على قُطز في أثناء إيابه من الشام الى مصر منتصراً فاغتاله وهو بعيد عن المعسكر في لحاق طريدة أرنب . واقدامه على هذا العمل يعد من أكبر آثام بيبرس وأفظع ما ارتكبه من الجرائم . ولا سيما ان (قُطزاً) كان مُمدّحًا . حسن السيرة . ولم يكن كالمعظم تورانشاه الذي كان بيبرس قتله قبله نقول هذا ولا نبالي جارنا الذي يُنصتُ الينا . وقد يغضب من سماع قولنا . لأن التاريخ يقول كلمته ثم لا يستعتب . ولا يبالي بمن غضب إلا أن يعود التاريخ نفسه فيعتذر له بأن هذا الغدر انما تعلمه بيبرس من إخوانه ومن ملوك زمانه

(فلا تحسبوا هنداً لها الغدر وحدها سجية نفسٍ كلُّ غانية هندُ)

(وإن ننسَ لا ننسَ ملك بلغار (أنس خان) الذي غدر ببيبرس وقومه فشرّد به في البلاد . وصيّره رقيقاً تتداوله أيدي الأسياد) .

وبعد ان قتل بيبرسُ (الملك قطزاً) أقبل مع رفاقه الى الدهليز السلطاني (أي المعسكر) وفيه أمراء الجيش ينتظرون رجوع الملك من طَرَد الأرنب . فهتف الأتابك (أقطاي) (والأتابك لقبٌ بمنزلة وزير الدولة اليوم) قائلاً من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا . فقال الأتابك (يا خوند اجلس على مرتبة السلطان) وكان ذلك سنة ٦٥٨ هـ وعمر بيبرس ٣١ سنة .

وأخذ من يومئذ يفكر في جمع كلمة ملوك الشام والحجاز وحملهم على الخضوع له بمختلف الوسائل ليتمكن بذلك من إتمام ما بداه الملكان (نور الدين) و(صلاح الدين) من طرد الصليبيين وتطهير البلاد من معرّتهم .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net